أصحاب الفيل

مَلكَ ذو نُواس بلاد اليمن، وهي تلك البلادُ التي تكْثرُ خيراتها وتفيض بالأرزاق أرْجَاؤها، ولما قبض على نَاصِية المُلك فيها نَقَمَ من سَلفهِ لا نغماسه في اللّذَات، وجُنوحه إلى دَوَاعي الشهوات، وأنكَر عليه مَيْلَهُ إلى الإثم، وإغراقه في الفُحش، فأنبأ ذلك عن نَفْس تطمحُ إلى الزهد في الدنيا، وتميلُ إلى النَّأي عن المآثم والفجور، وتحبُّ البعدَ عن مباهج الحياة وَزُخْرفها، وترغبُ في إصلاح النفوس، وبثّ روح الدِّين في الرعية. وقد كان منه بعد ذلك ما صدق هذا الحدس[1]، وأكد هذا الظن.

* * *

مرّ ذو نواس يوماً بيثرِبَ[2] مُجْتَازاً، وقد كان أهلُهَا ممن استجابوا لداعَي اليهودية، وأُشْرِبَتْ نفوسهم حبَّهَا، وتأصَّلَتْ في قلوبهم مبادئُها، واتخذها دُعاة اليهود مِنْبراً لدعوتهم، وَمعْقِلاً لديانتهم، وانتشرت فيها معابدهم، وصارت وكْراً لمبشِّريهم وعُشًّا لدعاتهم.

وسرعان ما هُرِعوا إليه يُلقون إليه شيئاً من مبادىء اليهودية، ويَبْسُطون له ما عَرَفوا من ميزاتها وفضائلها، علَّهم يجدون منه عَضُداً لهم، ومساعداً عَلَى نَشْر دينهم، فصادفَ هذا الدينُ هَوَىً في نَفْسِه، ورَغْبَةً كانت كامنةً في فؤاده، فأحبه وجاهَرَ بالدعوة إليه، ونصبَ نفسه داعياً له ونصيراً، ثم دعا العربَ جميعاً إلى مُشَايعته[3] فيه والدخول في زُمْرَته، واشتدَّ في عقاب مَنْ خالفه، فأطاعه كثير من العرب، بعضهُمْ يخافُ بَطْشه وقوته، وقليل منهم انخرط في سلك هذا الدِّين بعد أن رآه يُصْلحُ نَفْسَه، ويوافقُ هواهُ، وشاع أمرُ ذي نواس، وعظمت شَوْكَته، وخاف الناسُ بأسَه، فدخلوا في هذا الدِّين أفواجاً.

---

(١) الحدس: الفراسة والظن.

(٢) يثرب: هي مدينة رسول ﷺ.

(٣) شايع: صحب وأيَّد.

ولكن أهل نجران قد تفتَّحت قلوبهم لِدِينٍ جديد، وهو الدِّين المسيحي، فَدَوْهُ بأنفسِهم؛ واختلط بقلوبهم، فكانوا خارجين عَلَى دَوْلَتِه ومُتَحَدِّين لعقيدته.

ووفَدَ إلى ذي نُوَاس مَنْ يُثيره عليهم، ويُغْرِيه بهم، علَّهُ يهدمُ ذلك الصَّرْح الذي امتنع عليه دخولُه، ويفتَتحُ ذلك الحصنَ الذي أعْياه ولُوجُه، ويمحو هذا الدِّين الذي يوشِكُ أن يُمْحَى به ظلُّ اليهودية، وَيَعْفُو رسمها، وينتهي تاريخها.

فاستجاب لهذا الدُّعاء، واندفع وراء هذه الغوَاية، وخرج إلى أهل نَجْرَان يدعوهم إلى نَبْذِ دِينهم، ويأمرهم بالأخْذِ بدينه، والدُّخول في زمرة أشياعه وأتباعه؛ فأبوا الانحرافَ عن دينهم، وأصَرُّوا على امتناعهم، ولم تُرْهِبهُم عزَّتُه أو تُلين قناتهم صولتُه؛ فعزَّ عليه أن يجدَ له مُنَاوئاً، ولدِينه مخالفاً؛ فحفَرَ لهم حَفرة أضرم النار فيها، ثم أذَّن فيهم مُؤَذِّنه: إنَّ هذه جزاءٌ لمن لم يدخل في دينه، وهي عقاب لمن يُصِرُّ عَلَى مخالفته. فلم يَثْنِهم أوارُها. أو تزغ أبصارُهم من وهَجها؛ بل استمسكوا بدينهم، وتشبّثوا بعقيدتهم، فرماهم في الأخدود، وصيّر أجسادهم وقوداً للنار، جزاء عِنَادِهم ومخالفتهم.

* * *

فرَّ رجلٌ من هؤلاء الذين اصْطَلوْا بتلك النار، فمضى حتى أتى قيصر ملكَ الروم، فاستنصره على ذي نُوَاس وجنوده، وأخبره بما كان منهم، فقال له: بَعُدَتْ بلادُك مِنّا، ولكن سأكْتب لك إلى ملك الحبشة، فإنه على هذا الدِّين، وهو أقربُ إلى بلادِك.

وكتب إليه يأمَره بنصْرِه، والطلب بثأره، فقدم بلاد الحبشة بكتاب قيصر، وشكا إلى النجاشي ما حلَّ بقومه من الهلاك والدَّمار، وأسمعه أنينَ القتلى وغوث الشهداء، ونَعَى إليه رجال المسيحية والحامينَ ذِمَارها.

وعزَّ على النجاشي أن يَخْبُو ضوءُ الدِّين المسيحي في هذا البلد، وتنطفىء شعلته في ذلك المَعْقِل، فصمَّم على الثأر من ذلك الذي أراق دماءهم، واستباح أموالهم، وأهلك زروعهم، وجهَّز جيشاً كثُرَ عدده، وتوافرت عُدَّته، وبعث به إلى اليمن يغزو ملكها، وينتقم من أهلها.

ولما التقى الجمعان واشتبك الخصمان، تتابعت الهزائمُ على ذي نُوَاس وأصحابه،

وأخيراً أسلمت اليمنُ إلى النجاشيّ قيادها، وألْقَت إليه بزمامها، وبذلك أصبحت بلاد اليمن ولايةً تابعة للحبشة.

* * *

ثم صار أبْرَهَة والياً على اليمن، فأراد أن يُعِيد إلى الدِّين المسيحي شأنهُ، ويرجع إليه قوته، ولما رأى الناسَ جميعاً يقصدون مكةَ، يَحُجُّون بيتها الحرام وكَعْبتها المقدّسة، فكَّر في أن يغتَصِبَ ذلك الإكليل الذي ازّيّنَتْ به قريش، وأراد أن يَصْرِف الناس عن مكة وبيتها، ويجذبَ قلوب الناس نَحْو بلادِه. ويستميلَهم إلى دينه، فبنى كنيسة بِصَنْعَاء، وزينها بما يَبْهَرُ الأبصار، ويأخذ بالألباب، وعُني بزخرفتهَا غايةَ العناية، وجلب لها من فاخر الأثاث وثمين الرِّياش[1] ما خُيِّل إليه أنه صارف العرب وصارف أهلَ مكة أنفسَهم إليه، ولكنه رأى أن العربَ لا تتَّجه إلا إلى البيت العتيق، ورأى أهلَ اليمن أنفسهم يَدَعون البيت الذي بناه، وينصرفون إلى مكة. واشتد غَيْظُ العرب، واشتعلت نيرانُ الحقد في نفوسهم، إذا رأوا لبَيْتهم مُنَاوئاً، ولموئِل أصنامهم عَدَوًّا، فَعَمَدُوا إلى تحقير بيته، والحطِّ من قَدْره، فأحدث[2] فيه رجلٌ من كنانة ليلاً!

ولما علم أبْرَهَةُ بذلك اشتدَّ غضبُه، وغَلَى مِرْجَلُ غَيْظه، وأقسم ليهْدِمنَّ الكعبةَ، وليزيلنَّ بيت إبراهيم وإسماعيل، وليثأرنّ لبَيْتِهِ من العرب، حتى ينصرفوا عن كعبتهم. ويُوَلُّوا وجوههم نحو بيته.

تَهَيَّأ للحرب، وقاد الجحافل[3] تتقدمها الأفيال، وسار نحو مكة ليهدم بيت العرب، الذي هُوَ مَوْئلُ حَجِيجِهم، ومعقدُ آمالهم، ومكانُ اجتماعهم.

ولما سمع العربُ بذلك عزّ عليهم أن يُقْدم رجلٌ حَبَشيّ على هدْم بيت حَجّهم ومقام آلهتهم، فهَبّ رجلٌ من أشراف اليمن يُدْعىٰ ذا نَفَر، فاستنفر قومه، واستثار حميَّتهم، ودعا أهْل وطنه وغيرهم من العرب لمُقَاتلة أبرهة، وصده عن عَزْمه، ولكنه لم يستطع مقاومتَه، ولم يصمد للقائه؛ فُهزم ومن التف حوله وأُخذ أسيراً.

---

(١) الرياش: الأثاث.

(٢) أحدث الرجل: وقع منه ما ينقض طهارته.

(٣) جحافل جمع جحفل: وهو الجيش الكثير.

ولكن هل كان هذا مما يَثْني غَيْرَه عن مقاتلة أبرهة، وَيُقْعِد العرب عن محاربته؟ لا؛ فإنَّ كثيراً من العربِ قد دفعتهم الغَيْرَةُ على بيتهم، والحميَّة[١] لنُصْرَةِ دينهم إلى مُنَاوَأة أبرهة وَمُقَاتلته، ولكنهم جميعاً رجعوا بالهزيمة، وَبَاءُوا بالخيبَة.

سار أبْرَهة نحو مكة بعد أن ازَّيَّنَتْ رَأسُه بتاجِ النصر، وتحلَّى صدرُهُ بوِسام الفَوْز، وخضعت له قبائلُ العرب، وسعَتْ إليه وفودُ القبائل، تُقَدِّم له الطاعة، وَتُظْهِرُ له الخضوعَ، ويسعى أمام جيوشه منهم مَنْ يَدُلُّهُ على الطريق، وَيُرْشِدُه إلى آمَنِ السُّبُل.

خرج أبرهةُ ومعهُ أبو رِغَال حتى أنزله المغمّس[٢]. ولما استقرَّ به وبجيشه المقام بعثَ أبرهةُ رجلاً من جُنْده، فساق إليه أموالَ أهلِ تهامة من قريش وغيرهم، واستاق من بينها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم، وهو يومئذٍ صاحبُ السِّقاية[٣]، وشريفُ قومِه، وسيدُ عشيرته، فَهَمَّت قريشٌ ومَنْ معهم من أهل مكة بقِتَال أبرهة، ولكنهم رَأوا أنْ لا طاقةَ لهم به، فاستكانُوا لما نالهم من أبرهة، واحتملُوا الضَّيْم الذي لحقهم منه.

وبينما هم في هذا الضِّيق الذي شَمِلهم، وذلك الحُزْن الذي تخالج في نفوسهم، وفد إليهم رجلٌ من رجال أبرهة، يسأل عن سيِّد مكة، وصاحب السلطان فيها؛ فأُتِيَ به إلى عبد المطلب بن هاشم. فلما مَثَلَ بين يديه قال له: إن الملك يقول: إني لم آتِ لحَرْبِكم، وإنما جئتُ لهَدْمِ هذا البيت. فإن لم تَعْرِضُوا لنا دونه بحرب فلا حاجة لي في دمائكم. فإنْ هو لم يُرِدْ حربي فأتِني به.

فقال له عبد المطلب: والله ما نريدُ حَرْبَه، وما لنا به طاقة. قال الرسول: فانطلقْ معي إليه، فإنه أمرني أن آتِيَه بك.

فسار معه عبد المطلب ومعه بعضُ أبنائه وغيرُهم من كُبَرَاء مكة وأصحاب الرأي فيها، حتى وصلوا إلى مُعَسْكَره.

ولما دخل عبد المطلب عليه قيل: إنه سيِّد قريش، الذي يُطْعِمُ الناسَ في السَّهْل، والوحوش في الجبل. وكان عبد المطلب رجلاً جَسِيماً وَسيماً، تعلوه الهيبة ويحفُّه الوقار،

---

(١) الحمية: الأنفة.

(٢) مغمس: موضع قرب مكة في طريق الطائف مات فيه أبو رغال.

(٣) السقاية: سقاية الحجاج الماء الذي ينبذ فيه الزبيب.

فلما رآه أبرهةُ أكْرَم وِفَادَته، وأجلَّه وأكْرَمه عن أن يجلسه تحته، وَكَرِه أنْ تراهُ الحبشة يجلسُ معه على سرير مُلْكه، فجلس على بِسَاطه، وأجلسه معه إلى جَنْبِه. ثم أقبل عليه يستفسره عن طلبته، فطلب إليه ردَّ ما اغتصبت جيوشُه من إبله، فقال أبرهة: قد كنت أعجبتني حين رأيتُك، ثم زهدْتُ فيك حين كلمتني. أتكلِّمني في مائتي بعيرٍ أصبْتُها لك وتترك بيتاً هو دينُك ودينُ آبائك، قد جئت لأهدمَه، لا تكلِّمني فيه؟

قال له عبد المطلب: إني أنا رب[١] الإبل، وإن للبيت رَبًّا سيمنَعُه. قال أبرهة: ما كان ليمتنعَ مني. قال عبد المطلب: أنتَ وذاك!

ثم أسرع أبرهةُ إلى إرضائه، وَرَدَّ عليه أذْوَادَه[٢]، وعرض وَفْدُ مكة على أبرهة أن يرجعَ عن هَدْمِ الكعبة، على أن ينزلُوا له عن ثلث ثَرْوَة تِهامة[٣]. ولكنه أبى الإصغاء إلى أيّ حديث في هذا الشأن، ورفض أن يَقْبَل أي فِدْية؛ فانصرفوا وقد أهَمَّهم الأمر، وأفزعهم الخَطبُ، وعادوا إلى مكة يجرُّون أذيال الْخَيْبَة.

ونصح لهم عبدُ المطلب أن يخرجُوا إلى شِعَاب الجبل، إبقاء على نفوسهم، وحفظاً لأرواحهم، وتخوّفاً عليهم من مَعَرَّة الهزيمة.

وكانت ليلةً لَـيْلاَء، تلك التي فكَّر فيها القومُ في هَجْر بلدهم، وفيما هو نازلٌ بها وبهم، فاشتدّ الهَـرْجُ والمَـرْجُ[٤]، وتعالى الضَّجيج والعويل، وكنتَ ترى الناس وقد اكتَّظت بهم شُـعُوف[٥] الجبل، وضاقت بهم شوارعُ المدينة، وكنت تسمعُ رُغَاء الإبل، وثُـغَاء الغنم، وعَوِيل النِّسَاء، وبكاءَ الأطفال.

وخرج عبدُ المطلب من بين تلك الجماعات النازحة، وذهب ومعه نَـفَـرٌ من قريش إلى البيت، وأمسك بحَلْقَة باب الكعبة، وجعل يَدْعُو وَيَدْعُون، يستنصرون الله على أبرهة وَجُـنْده، ويضْرَعُون إليه أن يمنعَ بَـيْـتَه، ويحمي كَـعْـبَته؛ ثم انطلق وَمَنْ معه من قريش، حتى صعدوا في الجبل، ومكَـثُوا ينتظرون ما يفعل هذا الطاغيةُ بمكةَ إذا دخلها.

---

(١) الرب: اسم الله تعالى، ولا يطلق على غيره إلا بالإضافة.
(٢) أذواد جمع ذود: وهو القطيع من الإبل بين ثلاث إلى العشر.
(٣) تهامة: منطقة تساير البحر ومنها مكة.
(٤) الهرج: الفتنة والإختلاط. المرج: الفساد
(٥) شعوف جمع شعفة: وهي من كل شيء: أعلاه.

وخَلَت مكةُ منهم، وآنَ لأبرهة أنْ يُـوَجِّه جيْشَه ليهدمَ البيت؛ فتهيَّأ لدخول مكة، وجهَّـزَ فِيلَه، وَعَبَّى جيشه، ولكنَّ الله أرسلَ عليهم أسْرَاباً من الطير، تحمل في مناقيرها حجارةً رمتْهُمْ بها، فهشَّمَت رُؤوسهم، ومزَّقت لحومهم، وجعلتهم جُثَثاً هامِدَة، وأشلاء مُمزَّقة.

وأصاب أبْرهةَ شيءٌ مما أصاب جُنْدَه؛ فأخذه الرَّوْع، وداخله الفَزَع: فأمر مَنْ بَقِيَ معهُ بالعَوْدَةِ إلى اليمن، بَعد أنْ فَنِيَ عددٌ عَظيم منْ جندِه. وتشتَّتَ شَمْلُه، وتفرَّق جَمْعُه، وبلغ صَنْعَاء، وقد وهنَتْ قَـوَّتُه، ثم لَحِق بمن مات من جيشه.

وبذلك حفظ الله لقريش بَيْتَها، وأبقى لها زَعامتها، وزاد هذا الحادثُ العجيب في مكانة مكة، وجعل أهلَها يحتفظون بتلك المكانة الرفيعة، ويتربَّصُون لكل من يحاوِلُ الانتقاصَ منها أو الاعتداءَ عليها.

وقد كان ذلك إرهاصاً[1] لنبوَّةِ محمد ﷺ،الذي تفرَّع من هذه الأرُومَة[2] الطيبة، ونشأ في ظل هذا البيت العتيق؛ وَعُدَّ هذا الحادث من أعجب الحوادث؛ لأنّ الله ردَّ أصحاب الفِيل على أعقابهم خاسرين؛ فأرَّخ العربُ بعامِهِ، وتحدثوا بوُقوعه، وصار ذِكْرَى لهم، وحديثَ أبنائهم.

---

(١) الإرهاص: الأمر الخارق للعادة يظهر للنبي قبل بعثته.

(٢) الأرومة: أصل الشجرة، واستعملت للحَسَب يقال: طيب الأرومة: كريم الأصل.